تجليات الصوت اللغوي في سورة الرحمن

د. كفاية مذكور شلش

جامعة البصرة/ كلية الآداب

ملخص البحث

انطلاقاً من كون القرآن الكريم هو البحر الذي لا ينضب من المعاني والأفكار بل يتجدد على مر العصور، كرس أغلب الدارسين من القدماء والمحدثين جهودهم في البحث في آيات الذكر الحكيم، وهذا ما أغنى الدراسات في الحقل الديني كما يصفه البعض، لأنهم ينظرون للقرآن الكريم نظرة الكتاب المقدس فقط لا غير، ولا يرون بأنه دستور متكامل للقوانين التي تُسيّر الحياة بكل جوانبها، وإذا كان الله عزّ وجل قد أوصانا بتلاوته والـتأمل فيه((**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**))[1]، فإنما الغرض من هذا التدبر هو التطبيق العلمي؛ لأن التدبر شيء ذهني لابدّ أن يتلوه إنجاز فعلي، من هنا جاء هذا البحث ليسلط الضوء على بعض الجوانب الصوتية في سورة الرحمن ليتجلى مدى تطويع القرآن الكريم لأصوات العربية وسبكها لتلائم المعنى الذي يريد التعبير القرآني إيصاله.

الكلمات المفتاحية: الصوت، المؤثرات الصوتية، التكرار، المقطع الصوتي، الموسيقى، الفاصلة القرآنية، الجرس

Abstract

Based on the fact that the Holy Quran is an inexhaustible sea of meanings and ideas, but rather renewed throughout the ages, most scholars, ancient and modern, devoted their efforts to researching the verses of the Holy Quran, and this is what is the richest studies in the religious field as some describe it, because they look at the Holy Quran as if they are looking to the Bible , and they do not see it as a complete constitution with laws that govern life in all its aspects, and if God Almighty has commanded us to recite and meditate on it ((Then do they not reflect upon the Qur'an, or are there locks upon [their] hearts?)), the purpose of this contemplation is scientific application;

Because contemplation is a mental thing that must be followed by an actual achievement, hence this research came to shed light on some phonemic aspects in Surat Al-Rahman in order to conclude the extent to which the Holy Quran has adapted Arab voices and cast them to fit the meaning that the Quran expression wants to convey.

Key words: voice, sound effects, repetition, syllable, music, Quranic comma, bell.

المقدمة

للصوت ميزة خاصة في القرآن الكريم فهو عامل فعّال في التلقي والتأثير زيادة على جانبه الجمالي والنفسي، فالقرآن الكريم في نظمه اختار الأصوات لألفاظه على جانب عالٍ من الدقة والعناية حتى استطاع أن يتحدى بها العرب الفصحاء.

ونلحظ هذا الإيثار في اختيار ألفاظ من دون سواها على مستويين:

الأول: من ناحية التلقي والتأثير، إذ يتجلى ذلك من حيث نوع الأصوات الذي تشكلت منه التراكيب القرآنية، إذ تختلف الأصوات فيما بينها فلكل صوت ميزة خاصة به.

الثاني: من الناحية الجمالية: تتجلى في دراسة قوالب التشكلات الصوتية ما وردت بها سورة الرحمن المباركة.

وتتجلى جمالية الجانب الصوتي في القرآن الكريم عند التمعن في النظر في تشكلاته الصوتية وهذا هو موضوع بحثنا في سورة الرحمن وستشمل الدراسة مراحل التركيب الصوتي منذ بدايتها أصوات منفردة حتى انتظامها في التركيب.

الجانب الأول: التلقي والتأثير وارتباطه بالأصوات.

اعتنى القرآن الكريم أيّما عناية بجانب التلقي وما ينتج بعده من تأثير فيمن تلقاه؛ ولهذه العناية أسباب كثيرة من بينها: أن القرآن الكريم كتاب هداية وتشريع للأحكام أي أنه دستور شامل يضم القوانين التي يحتاجها المسلمون كافة، لذا فلابدّ من الاهتمام بجانب التلقي، هذا ما جعل المشركون عند سماعهم القرآن الكريم يميزون من أول وهلة بأن ما يسمعونه ليس كلاماً عاديا أنما هو كلام معجز خارج عن القدرة البشرية المحدودة قال تعالى: ((**قُلْ أوحِيَ إليَّ أنَّهُ استمَعَ نَفَرٌ منَ الجِنِّ فَقَالوا إنَّا سَمِعنا قُرآنًا عَجَبا۞ يَهدي إلى الرُّشدِ فآمَنَّا بهِ ولن نُشرِكَ بِربنا أحدًا**))[٢]، فهذه الآية خير دليل على ما

نتحدث عنه من اهتمام القرآن بالتلقي والتأثير.

المؤثرات الصوتية للتلقي والتأثير:

عند إطالة النظر في سورة الرحمن نجدها مُتشكلة من منظومة صوتية منتظمة في جزيئات صوتية متآلفة وهذه التوليفة سنؤكدها عند التحليل الصوتي للسورة الكريمة.

العناصر الصوتية المؤثرة في التلقي والتأثير:

-أولا: المجموعة الصوتيّة الأحادية:

ونعني بها منظومة من الأصوات التي تشترك بصفة صوتية واحدة أو صفتين، إذ تتباين الأصوات من حيثُ صفاتها الصوتية ما بين الجهر والهمس والشدة والرخاوة والاطباق والانفتاح، والانحراف والتكرار[٣]، وقد أطلق د. تمّام حسّان على هذا التباين مسمى (القيم الصوتيّة) التي يتعلق بها نوعٌ من المعاني، فضلاً عن أنها عبارة عن مؤثرات سمعية انطباعية ذات وقع على الوجدان، وتأثيرها في السامع شبيه بتأثير النغمة الموسيقية تطرب لها ثم لا تستطيع أن تقول لم طربت[٤]، فالقيمة الصوتية ذو جانبين من المؤثرات في القرآن الكريم الأول من جانب التلقي، وهذا شيء بدهي إذ أن مصدر ما يرددهُ الأشخاص كلما كان قوياً أو واضحاً كان التلقي له أكبر، أما جانب التأثير فتشترك به صفات مثل الصوت المتكرر والمستعلي، لنلاحظ البنية الصوتية لهذه الآية الكريمة قال تعالى:

((والسمَاءَ رَفَعَها وَوَضعَ الْمِيزان))[٥].

إن البنية الصوتية لهذه الآية الكريمة ذات مجموعة صوتية واحدة تشكلت من أصوات مجهورة (كالواو، والميم، والهمزة، والضاد، والعين، والياء، والزاي، والنون)[٦]، ويُعنى بالجهر لغة: ((يُقال جَهَرَ بالقول إذا رفع به صوته))[٧]، إذ أن الجهر يُطلق لظهور الشيء بإفراط حاسة البصر أو حاسة السمع[٨]، أما الجهر اصطلاحا: فهو: يُطلق، على الأصوات التي تسمح عند نطقها بتحريك الوترين مما يؤدي إلى ضيق المزمار بينهما ضيقا شديدا فتعمل هذه الأصوات عند انتاجها بوساطة جهاز التصويت على احتكاك الهواء[٩].

والمعنى الإجمالي للآية الكريمة، بأن الله عزّ وجل رفع السماء ووضع العدل بين خلقه، وهناك قراءة أخرى ((وخفض الميزان))[١٠]، إلا أن التعبير القرآني عدل إلى القراءة الأولى وهي ((وضع)) لأن القراءة الثانية تنتج لنا صوتين مخالفين للمجموعة الصوتية الواحدة التي تألفت منها الآية الكريمة وهما صوت (الخاء والفاء).

زيادة على ذلك أن التعبير القرآني يؤثر صفة الجهر من حيث تأثيرها

على السمع تارة كما لاحظناه في الآية الكريمة أعلاه، ومن حيثُ تأثيرها البصري تارة أخرى، وذلك يُلحظ في قوله تعالى: ((والنجم))[١١]، إذ اختار التعبير القرآني لهذه الكلمة والتي معناها النبات الذي لا ساق له الذي ينبت ويظهر على الأرض بدليل عطفه على الشجر وهو النبات الذي له ساق[١٢]، وفي هذه اللفظة أي (النجم) أصواتا تلائم معنى الجهر وهو الظهور البصري.

ومن أدلة المجاميع الصوتية الواحدة في سورة الرحمن أيضاً، قال تعالى: ((علّم القرآن))[١٣]

فتلاحظ البنية الصوتية للآية الكريمة تكونت من كمٍّ متتالٍ من الأصوات المجهورة والمتمثلة بـــ(العين، اللام، الميم، القاف، الراء، النون)، وهذا ما يناسب معنى الجهر السمعي والبصري، فالعملية التعليمية التي أشار لها التعبير القرآني تحتاج إلى معنى الجهر السمعي والبصري معاً ليوصل المخاطِب إلى مبتغاه، فمعنى تعليم القرآن أي((بصَّركم به ما فيه رضا ربِّكم، وعرَّفكم ما فيه سَخطُه، لتُطيعوه باتبَّاعكم ما يُرضيه عنكم))[١٤]، وهذا المعنى قد تناسب مع معنى الجهر الذي عبرت عنه المجموعة الصوتية الواحدة.

-ثانياً: التكرار:

إن لعنصر التكرار تأثيره الواضح في عملية التلقي والتأثير، ولكي نستوضح ذلك لابدّ من معرفة المعنى اللغوي للتكرار، وهو من الكرّ بمعنى الرجوع على الشيء[١٥].

والتكرار اصطلاحا: هو ((عبارة عن الإتيان بشيء مرَّة بَعْد أُخرى))[١٦].

هناك من يرى أن التكرار في اللغة أمر بدهي ويستند في رأيه على أمرين[١٧] هما:

١-إن التكرار أمر لازم في اللغة لأن المعاني أوسع مدى من الألفاظ المعبرة عنها، وهذا يتطلب إعادة الألفاظ مرة تلو أخرى على أوجه مختلفة من الدلالات.

٢-عدد الأصوات المحدود التي تتركب منها الكلمات الذي لا يصل إلى الثلاثين حرفا، مما استوجب تكرار هذه الأصوات مرة بعد أخرى.

قد نسلم إلى عدّ التكرار الصوتي أمر بديهي لكن حينما ننظر إلى سورة الرحمن ونجد التكرار فيها جاء بصورة واضحة للعيان لا يمكن التغاضي عنها، قال تعالى: **((فَبِأي آلاءِ رَبُكما تُكذبان))**[١٨].

إذ تكررت هذه الآية الكريمة أحدى وثلاثين مرة، وهذا التكرار ينتج عنه شدّ المتلقي إلى تلقي التتابع للآيات التي بعدها فكلما يتلقى آية ((**فبأي آلاء ربكما تكذبان**))، ينتظر أن تُعاد عليه

مرة أخرى فللتكرار أثر سمعي كبير على المتلقي إذ إنه يشدُّ انتباه المتلقي إلى الحدث المكرر.

أما بالنسبة للتأثير في ذاك المتلقي، فهذا الأمر يتوضح من خلال تتابع الآيات نفسها فلو كان المتلقي فهم المعنى الأول واستجاب له ينتقل المخاطِب وهو التعبير القرآني أي الذات الإلهية إلى معنى آخر، ولو نظرنا إلى التكرار في سورة الرحمن، فإن تكرار الآية الكريمة هنا وهي **((فبأي آلاء ربكما تكذبان))** يدل على أنّ المتلقي كان متردداً في قبول المعاني التي تتوافد عليه؛ لذلك ركز التعبير القرآني على عنصر التكرار الصوتي مرة بعد أخرى حتى يضمن وصول المعلومة التي ينقلها أولاً، وثانياً حتى يقنع المتلقي ويؤثر به، وربما هذا التردد من قبل السامع أو المتلقي في قبول المعاني في سورة الرحمن راجع إلى ما تنقله الآيات نفسها من معان، وهذا نستدلُ عليه في ثنايا آيات السورة المباركة، فالآيات من قوله تعالى: ((**الرَّحْمَنُ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ۞ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ۞ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ۞ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ۞ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ۞ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ۞فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ۞ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ))**[١٩].

إذ تحدث التعبير القرآني في هذه الآيات الكريمة عن معاني قد تكون واضحة للمتلقي ليس فيها ما يستغربه، فقوله تعالى الرحمن وصف للذات الإلهية لا يوصف به إلا الله عزّ وجل، لأن رحمته وسعت كل شيء، لذلك هو بعيد عن اللبس والغموض واضح للمتلقي منذ الوهلة الأولى، وكذلك هو حال المفردات الأُخر في هذه الآيات المباركة، فمثلا السجود معناه واضح للمتلقي وكرر التعبير هذا المعنى في مواضع أخرى في القرآن الكريم كقوله تعالى: ((**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ**))[٢٠]، وأيضا قوله: ((**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ**))[٢١]، زيادة على ذلك معنى الرفع للسماء فوق الأرض وهذا مما لا يختلف عليه اثنان، كذلك معنى العدالة واضح في قوله تعالى: ((**ووضع الميزان**))[٢٢].

ثمّ أنتقل التعبير القرآني إلى آيات قد يتردد متلقيها في استقبالها كونها خارجة عن الصورة التي يألفها ومن هذه الآيات قوله تعالى:

((**خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۞ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**))[٢٣].

فخلق الإنسان من الصلصال وهو الطين اليابس، وخلق الجان وهو إبليس من اللهب الصافي الذي لا دخان فيه[٢٤]، هذه الحقائق قد يشكُّ فيها المتلقي ولا يستطيع تقبلها للوهلة الأولى لذلك أكد التعبير القرآني المعنى للمتلقي بوساطة هذه المنظومة الصوتية ((**فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**))، حتى يترسخ المعنى الذي ينقله القرآن الكريم في ذهن السامع ولا يبقى له مجالاً للشك.

-تكرار الصوت المفرد: ((تتخذ اللغة القرآنية أحيانا من الصوت المتكرر وسيلة بلاغية لتصوير الموقف وتجسيمه، والإيحاء بما يدل عليه معتمدة في ذلك على ما تتميز به بعض الألفاظ من خصائص صوتية، وما تشيعه بجرسها الصوتي من نغم يسهم في إبراز المعنى))[٢٥]، وتجليه للمتلقي.

ولكل صوت من أصوات اللغة العربية التي تشكلت منها هذه الآيات المباركة يحملُ في طياته قيماً صوتية، أي خصائص تنماز بها الأصوات فيما بينها وترتبط بها معان تدعى بالمعاني الطبيعية، وهي عبارة عن مؤثرات سمعية انطباعية ذات وقع على الوجدان إذ يطرب لسماعها مع جهله التام بالسبب الذي جعله يتفاعل معها[٢٦]، والتعبير القرآني اعتمد هذه القيم الصوتية وسيرها أحسن تسييرا لتحقق له هذا الغرض المنشود وهو جعل المتلقي في مواطن يذهل ويذهب بعيدا في مخيلته بمجرد سماعه للفظة من الألفاظ من دون معرفة سبب ذلك، ومواطن أخرى نرى المتلقي يتبادر إلى ذهنه شيء من الخوف أو الطمأنينة وهذا راجع أيضاً لتلك القيم الصوتية التي انطوت عليها الأصوات المتكررة في سياق الآيات الكريمة.

ولو نظرنا إلى بعض الآيات في سورة الرحمن لوجدنا هذا التكرار الصوتي ماثلا للعيان كما في قوله تعالى: ((**رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۞ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۞حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ**))[٢٧].

فنلاحظ هذه الآيات الكريمة الثلاث جاءت منطوية على مجموعة صوتية تكررت فيها الأصوات المجهورة حتى طغت على المجموعة الصوتية فيها، فما عدا صوت (الشين والحاء والتاء) المهموسة، جميع أصوات الآيات الكريمة أنصوت على أصوات مشتركة في صفة الجهر، والتي وافقت المعنى الكلي للآيات، فالمراد بقوله تعالى (رب المشرقين والمغربين) إثبات لحقيقة عظمى فلابدّ أن يتفق عليها جميع من في الأرض، وقوله تعالى((مرج البحرين))، إذ اختلف المفسرون في معنى البحرين هنا فقيل أنهما بحران

بحر في السماء وآخر في الأرض، وقيل أنهما بحر فارس وبحر الروم، وأيضاً قوله تعالى: ((حور مقصورات))، بمعنى عذارى الجنة [٢٨]، فقد عبر القرآن الكريم عن هذين المعنين وهما من المعاني الغامضة فلا يتوصل لفهمهما بوساطة الأشياء المحسوسة فلا نستطيع مثلا تخيل الحور إلى يومنا هذا لأنها أشياء غيبية لا احاطة لنا بها وهي بعيدة عن مدار الفكر لدى الإنسان.

وبذلك وظف التعبير القرآني التكرار الصوتي في ناحيتين الأولى وهي تكرار المعاني التي يريد توكيدها وتثبيتها، والثاني تكرار المعاني التي يجهلها المتلقي أو التي ليس له إحاطة بها.

-ثالثاً: المقطع الصوتي:

المقطع لغة: ((مصدر قطعتُ الحبْلَ قَطعْاً فانقطع))[٢٩]، ويطلق على مطلق الفصل كقطع الأعضاء في قوله تعالى: ((لأقطعنَّ أيديكم وأرجلكم))[٣٠]، والقطع المعنوي كقطع الطريق ، وقطع ما أمر به الله من السلوك الحسن[٣١].

المقطع اصطلاحاً: عرفه بعض الدارسين أنه أصغر وحدة صوتية يمكننا النطق بها في الكلام[٣٢].

والنسيج المقطعي للغة العربية يتكون من خمسة أنواع من المقاطع وهي المقطع القصير(ص ح)، والمقطع المتوسط بنوعيه(ص ح ص) و(ص ح ح)، والمقطع الطويل بنوعيه(ص ح ح ص) و(ص ح ص ص)[٣٣].

وتقسم المقاطع الصوتية إلى نوعين[٣٤]:

١-المقطع المتحرك الذي ينتهي بصوت لين قصير أو طويل.

٢-المقطع الساكن فهو الذي ينتهي بصوت ساكن.

وهناك من يسميه [٣٥] بالمقطع المفتوح، والمقطع المغلق.

ولو نظرنا لسورة الرحمن لوجدنا هذه الأنسجة المقطعية ماثلة أمامنا، إذ تنوع النسيج المقطعي في سورة الرحمن حتى شمل كل ما يمكن أن تشكله الأصوات العربية من مقاطع، نحو قوله تعالى:

((**مُدْهَامَّتَانِ**))[٣٦]، فالتشكيل المقطعي لهذه الآية الكريمة التي تألفت من لفظة واحدة هو كالآتي:

مدْ← ص ح ص

هام← ص ح ح ص

مـَ← ص ح

تا/ نِ أو تانْ(عند الوقف)← ص ح ح + ص ح (أو) ص ح ح ص.

فقد تكونت هذه اللفظة الكريمة من خمسة مقاطع عند الوصل وأربعة

مقاطع في الوقف، وتوزعت هذه المقاطع ما بين المقطع القصير (ص ح) و المقطع المتوسط (ص ح ص) والمقطع الطويل (ص ح ح ص)، وهذا ما ناسب المعنى الذي تحمله هذه الآية الكريمة، فقد وصف التعبير القرآني في هذه اللفظة حال الجنتين التي خصصهما الله عزّ وجل لبعض أصحاب اليمين من دون المقربين منهم قد ادهامّتا من شدّة الخضرة[٣٧] ، إذ يكون التعبير القرآني بهذا الوصف بمقاطعه المتعددة قد فتح المجال للمتلقي ليتفكر في وصف الجنات التي أعدها الله عزّ وجل للمقربين لأن الأمر في مجمله خارج عن الوصف فلما وصف ما دون المرتبة العليا بهذه اللفظة تلقائيا يكون حال الجنات الباقية أفضل منها في الوصف.

وفي قوله تعالى: ((**نَضَّاخَتَانِ**))[٣٨].

أيضاً هذه اللفظة كسابقتها من حيث تشكيلها المقطعي الذي ابتدأ بالمقطع المتوسط المغلق، وهنالك ألفاظ أحتوت على مقطع واحد أو مقطعين كما في قوله تعالى: ((يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ))[٣٩].

فقوله تعالى: معشر يتكون من ثلاثة مقاط، كما موضح أدناه:

معْ← ص ح ص.

شـَ ← ص ح.

رَ أو رلــْ(عند الوصل)← ص ح أو ص ح ص.

وفي قوله تعالى: ((الجن)) تكونت من مقطعين فقط ، كما هو موضح في التقطيع الآتي:

جـِ← ص ح.
نِـ ← ص ح.

وفي قوله تعالى: ((لا)) تكونت من مقطع واحد وهو المقط المتوسط المفتوح (ص ح ح).

وبهذا يكون النسيج المقطعي لسورة الرحمن قد توزع ما بين الأنسجة المقطعية جميعها ولم يقتصر على نوع مقطعي واحد، لكنه ركز على النوع المقطعي الطويل المغلق في الفاصلة القرآنية عند الوقف كما موضح في قوله تعالى: ((بِسُلْطَانٍ)).

طانْ← ص ح ح ص.

وهذا يتضح في بقية فواصل الآية الكريمة أيضا.

الجانب الثاني: المنحى الجمالي وارتباطه بالأصوات.

لو بحثنا عن مكمن الجمال في السورة الكريمة لأرشدتنا إليه التراكيب التي جاءت مؤتلفة بألفاظ مختارة بعناية منطوية على مقاطع متناسقة من حيثُ الطول والغلق والانفتاح، مُتشكلة

بوساطة أصوات لغوية في منظومة صوتية مميّزة، إذن المكمن الجمالي في سور القرآن عامة من الصعب وضع اليد عليه لأن التعبير القرآني جاء متكاملاً في نظمه، والباحث في جانب الصوت سيفوته معطيات جمالية أخرى تبثها جوانب الصرف والتركيب والدلالة؛ لأنّ القرآن الكريم عبارة عن دِراسة لغوية تامّة لا يتجزأ بعضها عن البعض الآخر، ومن استساغ التجزئة ستكون دِراسته غير ناضجة، ونتائجها غير مجزوم بها.

يتجلى الجانب الجمالي بعنصر الإيقاع الموسيقي الذي يلفُ التراكيب الصوتية في سورة الرحمن المباركة، فـ((الموسيقى في تعبير القرآن صورة للتناسق الفني فيه، ومظهر من مظاهر تصوير معانيه، وبالتالي هي آية من آيات هذا الإعجاز الذي يتجلى فيما يتجلى في أسلوبه المتميز الرفيع))[٤٠].

ولو نظرنا في السورة الكريمة لوجدنا نوابع الموسيقى في عنصرين:

الأول: الفاصلة القرآنية.

الثاني: جرس الأصوات.

الأول/ الفاصلة القرآنية: وهي الألفاظ آخر الآيات الكريمة[٤١]، وهي أحد العناصر المهمة التي بفضلها اكتسب التعبير القرآني موسيقاه وهي تمتلك مجالاً واسعا للتحرك ضمن السورة الواحدة[٤٢]، وهذا يُلحظ في سور أُخر، لكن الجو الموسيقي الذي صنعته القافية في سورة الرحمن بُنيّ على عنصر رئيس وهو تشابه خواتم الفواصل في الحرف والمقطع.

جاء التعبير القرآني في سورة الرحمن مركزا على صوتين دون غيرهما وهما صوت الميم والنون، كما هو موضح في قوله تعالى:

((الرحمن))[٤٣].

((يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ))[٤٤].

((يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ))[٤٥].

((تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ))[٤٦].

إن هذين الصوتين اللذين أختتمت بهما فواصل الآيات الكريمة في سورة الرحمن اشاعا جوا موسيقاً متناغماً يستجيب له المتلقي وينبهر عند سماعه، لأن ((علم الأصوات والحروف، له تعلُّق ومُشاركةٌ للموسيقى، لِما فيه من صَنْعة الأصوات والنّغَم))[٤٧]، فأي اختلاف ما بين الأصوات يؤدي إلى تغير الموسيقي فمثلاً أي انحراف في مخارج الصوت يؤدي إلى تغير النغمة التي يحملها هذا الصوت وبذلك ينتج صوت آخر يحمل نغمة أخرى[٤٨].

فصوتا الميم والنون من الأصوات المجهورة متوسطا الشدة لكن يختلفان في المخرج

إذ إن صوت النون يكون مخرجه من أول اللسان وصوت الميم أبعد منه بكثير، وهذا التشابه ما بينهما سهل التبادل ما بين الفواصل المنتهية بصوت النون والميم، وأن ما جعل القرآن الكريم يؤثر الفاصلة المنتهية بصوت النون على صوت الميم هو ما يتميز به صوت النون من وضوح سمعي على الرغم من قرب مخرجه(٤٩).

وفرت هذه الفاصلتان المشتركتان في صفاتهما الجو الموسيقى الهادئ الذي ناسب المعنى الذي تحمله سورة الرحمن المباركة وهو التعليم والتوضيح للسؤال الذي استفسر عنه المشركون، وجو الهدوء والسكينة يلائم التعليم وما يشتمل عليه من القدرة على نقل المعلومة للمتلقي، فحين ذكر المشركون أن الذي علم الرسول (صلى الله عليه وآله) القرآن الكريم هو بشر مثله، جاء الرد عليهم من خلال سورة الرحمن(٥٠)، لكنه رداً متناسقاً من نواحيه جميعها حتى يؤثر في المتلقي أولاً ويبرز نواحي الجمال والدقة في التعبير ثانياً.

الثاني/ الجرس الصوتي:

ينتج جرس الأصوات مما تحمله الأصوات من صفات صوتية تنماز من خلالها من بقية الأصوات في العربية، والذي نلحظه في سورة الرحمن جاء التركيز على أصوات دون غيرها نظراً للصفات الصوتية التي تكمن فيها، إذ آثر التعبير القرآني لفظاً على آخر ليوصل المتلقي إلى حس الجمال الصوتي فيما يسمعه من كلام فضلاً عن المعلومة التي يريد إيصالها.

فـ((يعنى القرآن بالجرس والإيقاع عنايته بالمعنى، وهو لذلك يتخير الألفاظ تخيراً يقوم على أساس من تحقيق الموسيقى المتسقة مع جو الآية وجو السياق، بل جو السورة كلها في كثير من الأحيان))(٥١)، وهذا الأمر نلتمسه في قوله تعالى:

((فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ))(٥٢).

إذ جاءت أصوات الآية الكريمة كلها مجهورة ما عدا السين فضلاً عن شيوع الأصوات الرخوة أكثر من غيرها(٥٣) وهذا ما ناسب معنى الآية الكريمة، فالكفار قد عرفوا خطأهم في ذلك اليوم وقد وضحت لهم أعمالهم لذلك قد سقط عنهم حق السؤال ولم يطالبوا به أيضاً، كذلك أنهم قد يأسوا من رحمة الله وهذا ما ناسب الجو الهادئ المليء بشحنات القنوط وضياع الأمر.

الخاتمة

عُني البحث في التبحر في الجانب الصوتي لسورة الرحمن، لإيجاد تأثير هذا الجانب على مستوى التلقي بفرعيه التأثيري والجمالي، وقد خرجنا بالنتائج الآتية:

-إن سورة الرحمن المباركة عقدت صلة ما بين الجانب الجمالي والجانب التأثيري، وقد استغل التعبير القرآني الطاقات التي تحملها أصوات العربية كلها في توضيح المعاني التي يريد إيصالها، وبهذا كانت السورة المباركة جزء لا يتجزأ من التحدي الذي أعلنه القرآن الكريم بصريح العبارة الذي يدور عن عجز العرب و عدم قدرتهم على الإتيان بآية واحدة مما ورد فيه، وذلك العجز قد توضح فالقرآن الكريم لا يقوم برصف المباني فقط وإنما هو يرصف الأصوات حتى تشكل مباني تلائم المعاني.

-وهذه النقطة تتوضح في استعمال القرآن الكريم لمجاميع صوتية تضم أصواتاً مشتركة في الصفة ذاتها في الآية الواحدة، وهذا ما يقوي التماسك الصوتي ما بين عناصره ويزيد من التركيز على الصفة التي تحملها تلك الأصوات سواء كانت صفة الجهر أو الهمس أو التكرار أو الإطباق وغيرها.

-وأيضاً نستدل على اهتمام التعبير القرآني بالأصوات التي يُشكل منها مبانيه، حين نرى تنوع المقاطع التي تشكلت منها تلك المباني ما بين قصير ومتوسط وطويل.

-كما أن العنصر الإيقاعي -الذي اهتم به التعبير القرآني وأولاه أهتماما بارزا والذي تجلى في عنصري الفاصلة القرآنية والجرس الصوتي- كان من أهم العناصر التي أثرت في الجانب الصوتي وجعلته يؤدي الغاية المنشودة.

هوامش البحث

(١) سورة محمد: ٢٤.

(٢) سورة الجن: ١-٢.

(٣) يُنظر: الكتاب، سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تح: عبد السلام هارون، ٤/ ٤٣٤-٤٣٥، و سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني(ت٧٩٢ه)، تح: محمد حسن محمد حسن إسماعيل و أحمد رشدي شحاته، ج١، ص٧٥-٧٧.

(٤) يُنظر: البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، د. تمّام حسّان، ص٢٥٧.

(٥) سورة الرحمن: ٨.

(٦) يُنظر: الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس،

(٧) لسان العرب، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري، مج ٤، (م: جهر)، ١٤٩-١٥٠.

(٨) يُنظر: مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، (م: جهر)، ٢٠٨.

(٩) يُنظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، محمد الأنطاكي، ج١، ١٣-١٤.

(١٠) يُنظر: تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري(ت٣٠١ه)، تح: د. عبدالله بن عبد المحسن التركي، ج٢٢، ١٧٧.

(١١) سورة الرحمن: ٦.

(١٢) يُنظر: تفسير الطبري، ج٢٢، ١٧٥، وتفسير النسفي مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات عبد الله أحمد بن محمود النسفي(ت٧١٠ه)، تح: يوسف علي بديوي، ج٣، ٤١٠.

(١٣) سورة الرحمن: ٢.

(١٤))تفسير الطبري، ج٢٢، ١٦٨.
(١٥))يُنظر: كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت١٧٥ه)، تح: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي،(م: كر)، ج٥، ٢٧٧.
(١٦))معجم التعريفات، علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني(ت١٤١٣م)، تح: محمد صديِّق المنشاوي، ٥٩.
(١٧))يُنظر: التكرير بين المثير والتأثير، د. عزّ الدين علي السيد، ٧.
(١٨) سورة الرحمن: ١٣.
(١٩))سورة الرحمن: ١-١٤.
(٢٠))سورة الرعد: ١٥.
(٢١))سورة الحج: ١٨.
(٢٢)يُنظر: مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، ج٩، ٢٥٢.
(٢٣))سورة الرحمن: ١٤-
(٢٤)يُنظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري(ت٥٣٨ه)، تح: عادل أحمد، ج٦، ٧.
(٢٥))لغة القرآن الكريم في جزء عمّ، محمود أحمد نحلة، ٣٤٦-٣٤٧.
(٢٦)يُنظر: البيان في روائع القرآن دِراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، د. تمام حسان، ٢٥٧.
(٢٧))سورة الرحمن:١٧، ١٩، ٧٢.
(٢٨))يُنظر: تفسير الطبري، ج٢٢، ٢٠٠، ٢٦٧.
(٢٩))لسان العرب، مج٨،(م: قطع): ٢٧٧.
(٣٠))سورة الأعراف: ١٢٤.
(٣١))يُنظر: مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، (م: قطع)، ٦٧٧.
(٣٢))يُنظر: دراسة الصوت اللغوي، د. أحمد مختار عمر، ١٦١.
(٣٣))يُنظر: الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس،٩٠-٩١.
(٣٤))يُنظر: المصدر نفسه: ٨٧.
(٣٥))يُنظر: العربية وعلم اللغة الحديث، محمد محمد داود، ١٣٠.
(٣٦))سورة الرحمن: ٦٤.
(٣٧))يُنظر: الكشاف، ج٦، ١٨.
(٣٨))سورة الرحمن: ٦٦.
(٣٩))سورة الرحمن: ٣٣.
(٤٠))الجرس والإيقاع في تعبير القرآن، د. كاصد ياسر حسين، آداب الرافدين، ع٩، ١٩٧٨، ٣٢٩.
(٤١))يُنظر: البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم: ٥٣/١.
(٤٢))يُنظر: سحر النص قراءة في بنية الإيقاع القرآني، د. عبد الواحد زيارة، ٨٢.
(٤٣))سورة الرحمن: ١.
(٤٤))سورة الرحمن: ٢٢.
(٤٥))سورة الرحمن: ٤١.
(٤٦))سورة الرحمن: ٧٨.
(٤٧))سر صناعة الإعراب، ج١، ٢٢.
(٤٨))يُنظر: أسس علم اللغة، ماريوباي، ترجمة: د. أحمد مختار عمر، ٤٥.
(٤٩))يُنظر: الأصوات اللغوية: ٤٨-٤٩، ٥٥، ويُنظر: المحيط في أصوات العربية، ٢٦.
(٥٠))يُنظر: تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ج٢٧، ٢٢٨.
(٥١))الجرس والإيقاع في تعبير القرآن، ٣٣٥.
(٥٢))سورة الرحمن: ٣٩.
(٥٣))يُنظر: المحيط في أصوات العربية: ٢٦.

مصادر البحث

-القرآن الكريم.
- أسس علم اللغة، ماريوباي، ترجمة: د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط٨، ١٩٩٨.
-الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، نهضة مصر، د.ت.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، تح: محمد أبو

الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، د. ت.

– البيان في روائع القرآن دِراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، د. تمّام حسّان، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٣.

– تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤.

– تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري(ت٣٠١ه)، تح: د. عبدالله بن عبد المحسن التركي، هجر، ط١، ٢٠٠١.

– التكرير بين المثير والتأثير، د. عزّ الدين علي السيد، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٧٨.

– تفسير النسفي مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات عبد الله أحمد بن محمود النسفي(ت٧١٠ه)، تح: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب متو، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٩٩٨.

– دراسة الصوت اللغوي، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٦.

– سحرُ النص قراءة في بنية الإيقاع القرآني، د. عبد الواحد زيارة إسكندر المنصوري، الفيحاء، بيروت، ط١، ٢٠١٣.

– سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني(ت٧٩٢ه)، تح: محمد حسن محمد حسن إسماعيل و أحمد رشدي شحاته، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط١، ٢٠٠٠.

– العربية وعلم اللغة الحديث، محمد محمد داود، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠١.

–الكتاب، سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨.

– كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت١٧٥ه)، تح: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، د. ت.

– الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري(ت٥٣٨ه)، تح: عادل أحمد و علي محمد، مكتبة العبيكان، ط١، ١٩٩٨.

–لسان العرب، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، د.ت.

– لغة القرآن الكريم في جزء عمّ، محمود أحمد نحلة،

– مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، دار المرتضى، بيروت، ط١، ٢٠٠٦.

– المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، محمد الأنطاكي، دار الشرق العربي، بيروت، ط٣، د. ت.

–معجم التعريفات، علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني(ت١٤١٣م)، تح: محمد

صدِّيق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، د.ت.

-مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، د.ت.

البحوث المنشورة بالدوريات

-الجرس والإيقاع في تعبير القرآن، د. كاصد ياسر حسين، آداب الرافدين، ع٩، ١٩٧٨.